Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

سوى قليل ممن تجاوزوا الحديث عن فاعلية التشكيل المسافى فى شحن النص صوتيًا إلى رصد فاعليته دلالياً. وهذا ما لم تفعله البلاغة العربية القديمة التى توقفت عند رصد أنماط ائتلاف التركيب السجعية طولا وقصرا فحسب، مخلّفة وراءها أحكام قيمة لا يمكن تقبلها دون نقاش. ويأتى ابن الأثير فى مقدمة الذين أصدروا أحكامًا فى هذا الصدد يجدر بنا الوقوف أمامها ومناقشتها.

فقد ذكر ابن الأثير أنماطًا من ائتلاف التراكيب السجعية طولا وقصرا، مقدِّمًا -كما سبق أن ذكرنا- أربعة قوالب لوحدات سجعية لا يتجاوز مداها الفقرتين أو الثلاث، وما يهمنا فى عمل ابن الأثير هو تصنيفه وترتيبه لهذه القوالب على سُلَّم القيمة. فهو يرى أن السجع المتساوى الأطوال هو أشرف أنواع السجع منزلة، مسجلا هذا الرأى ضمن جماليّة عامة للسجع، يعتبر بحق من أهم منظريها. يلى هذا القالب من حيث القيمة التركيب السجعى الثنائى الذى تكون فيه السجعة الثانية أطول قليلا من الأولى طولا لا يخلّ بالاعتدال فإذا جاءت السجعة القصيرة تالية للطويلة فذلك عند ابن الأثير عيب فاحش.

وقد أثارت أحكام القيمة التى أصدرها ابن الأثير – فى هذا الصدد- احتجاج واحد من النقاد العرب المحدثين؛ إذ اتخذ محمود المسعدى موقفا مخالفا ابن الأثير فى أحكامه، ولا سيما فيما يتعلق بمبدأ الاعتدال. فلم يكن المسعدى من المعجبين بالإفراط فى التساوى العددى، فعنده أن "الإفراط فى الانتظام والتعادل والتوازى يجعل السجع جامدًا رتيبًا، ويدخل عليه نوعًا من التنغيم الآلى الراكد".[1] كما أنه يخالف ابن الأثير فى أحكامه المتعلقة باهتزاز المسافة الإيقاعية، حيث يرى أن طول الفقرة الأولى وقصر الثانية يورث الكلام سهولة وانسيابا، وأن قصر الأولى وطول الثانية يورث الكلام إجهادا وتقطعًا. "وإنما اختلف الرجلان لاختلاف منطلق البحث فى السجع عند كل منهما. فأساس السجع فى نظر "ابن الأثير" الوحدة الخطيّة المحققة وما عداها تابع لها، وأساسه

(القرآن: ينابيع الوحى الإلهى، البنية الإيقاعية فى السور المكية) وقام بعرضها والتعليق عليها د. لبيب السعيد. ويهمنا بالخصوص من بين لوحاته القياسية التى قدمها تحت عنوان "ما هو ذو دلالة خطيّة". يهمنا النظر إلى لوحة "التناغم" التى من مهامها قياس المسافات، ومعرفة قيمها النغميّة مع إشارات بسيطة إلى ما تقدّمه للدلالة.

(١) الإيقاع فى السجع العربى، محاولة تحليل وتحديد، محمود المسعدى، ص ٣٨.